سامي خشبة

رفاعة رافع الطهطاوي :
المفكر والمعلم . . . بالترجمة

اعتذار ووعد

معذرة ايها الجد الجليل ! ها هم يحتفلون بذكراك وكانهم يرفعونك شعارا في مهرجان . ينزعون عن رايتك شارة الحرية وعلامة العقل ، ويخفون وجهك الشجاع وقلبك عاشق الحياة والحقيقة ، لكي يعطوك قناع المهارة وحدها او مجرد الذكاء . ورغم هذا يجعلونك مجرداعجوبة لكي تبدو فلتة غير قابلة للاستمرار ، فتصبح تاريخا فقط، انقضى اوانه مع الماضي المندثر ، ويتخذونك ايضا لهم قناعا يتجملون به .

احتفالهم يجعلك تبدو كنجم من نجوم السينما ، وسيخالك الناس ـ لانهم اخفوا عن الناس حقيقتك ـ واحدا مثل الذين يحبون ان تظهر صورهم كل يوم في كل مكان .. سيعتقدون انك كنت تحب ان تخايل الناس،لا ان تثير خيالهم ، وان تبهرهم لا ان تربي عقولهم، وان تسليهم لا ان تعلمهم ، وان تزين لهم ما هم فيه من جهل وقهروتخلف وفقر ، لا ان تأخذ بأيديهم لتدلهم على مصادر النور والوعي ، وعلى ما يمتلكونه في داخلهم من قدرة وقوة ، وما ينبغي ان يمجدوه في العقل والحرية ، وفي ضرورة المعرفة والكبرياء والعمل المنظم المشترك ،وما ينبغي ان يدافعوا عنه في العدل والاخاء والمساواة ، حتى يستطيعوا ان يغيروا عالمهم ، وان يستمتعوا فيه المتعة الجديرة بالانسان . وسيظن الناس انك كنت تريدنا ان نبقى على ما وعدتنا عليه ، او ان نصل الى ما وصلنا بالفعل اليه ، وسيظنون ان هؤلاء المحتفلين بك هم احفادك الشرعيون حقا ، وانهم بما يفعلون ويقولون ، يحققون وصاياك ، ويسيرون على هديك .

معذرة ايها الجد الجليل ! واسمح لنا نحن اندعيك فننسب انفسنا اليك ، حتى لا نتركك فريسة لاصحاب الابهار والمخايلة والالسنة العجماء ، يزعمونك جدا لهم وانهم احفادك ، يحصلون للجهل والقهر والادعاء وفقر العقول والاحساس وثيقة مزورة يبرزونها للبسطاء تقول ان هذا هو تراثك .

معذرة ايها الجد الجليل ، فان ميراثك ضاع . وها نحن نبدأ احياءنا لذكراك بالاعتراف لك : اننا لم نحسن الانتفاع بما تركت لنا ، ولم نحسن العمل بما قضيت زهرة العمر الجميل تتعلمه بالجهد الشاق وتعلمه لنا بجهد اكثر مشقة . اضعنا ايها الجد فضائل انت جسدتها بحياتك ، وكانت تجعل الكدح من اجل المعرفة والتمسك بمسئوليتها متعة الدنيا ، وشرف العارفين . وكانت تجعل المعرفة كنزا مشاعا ، على مالكه ان يزيده لكي يمنحه هبة للطالبين ، ولكي يذهب به لمن يحتاجونه ولا يعرفون بوجوده ، وكانت ـ فضائلك ـ تجعل المعرفة والحرية توأمين وكانت تجعل المعرفة دون ممارسة لاكتسابها، ولتطبيقها ، ولتعديلها وتطويرها ، كائنا مسخا لا كيان له ولا مستقبل ، وكانت تدعو لان يكون « الوطن » ملكا مشتركا بيننا ، نبنيه بالفكر والعمل والمصنع ، فكانت تجعل المعرفة دون احساس بمن ستوضع هذه المعرفة في خدمتهم، ودون ان تبدأ من البحث عن تلبية احتياجاتهم لكي تعود اليهم في النهاية فينتفعوا بها حقا ، دون ذلك كانت فضائلك تجعل المعرفة زخرفا لا حاجة اليه وكائنا لقيطا لا اصل له ، وفضولا زائدا يتلكأ على حافة التاريخ والوطن الى ان يجرفه تيار الواقع دون اسف .

سيرة حياة المعرفة والحرية

في شهر اكتوبر من عام ١٨٠١ ، خرجت من مصر حملة نابليون بونابرت ، اول حملة استعمارية على الشرق

ترغم على الانسحاب من « مستعمرتها » المسلوبة ، دون شروط . واخذت الحملة معها في صندوق من الرصاص جثة كليبر ، خليفة نابليون في قيادة الحملة وحكم المستعمرة ، واول جنرال استعماري تعدمه يد الثورة الوطنية في الشرق . واخذت الحملة ايضا كتاب « وصف مصر » الذي وضعه علماؤها ، بينما سلمت للانجليز « حجر رشيد » الذي سيؤدي فك طلاسمه بعد سنوات الى ازالة ستار الغموض والجهل عن اعظم واعرق حضارات الانسان القديم . ولكن الحملة تركت وراءها روح المقاومة التي اثارتها والثقة في النفس واكتشاف الذات بعد قرون الاستسلام والخنوع والضياع ، كما تركت الحملة وراءها عددا من الرجال الذين صدمهم التفوق الحضاري الذي كانت تمثله فايقظ التحدي عقولهم . وبعد ذلك بأيام ، دخل محمد علي القاهرة ، ضمن جيش اعادة السيطرة العثمانية ، لكي يبدأ مغامرته الكبرى بهدف اعادة الروح الى سلطنة العثمانيين وهي المغامرة التي ادت ، على العكس ، الى اعادة الروح لمصر نفسها وللعالم العربي .

ولكن في منتصف ذلك الشهر نفسه ، ولد رفاعة الطهطاوي ، في بلدة طهطا من قلب صعيد مصر . ولم يكن لولادته يومذاك مغزى ، الا انه ولد في البلدة التي اغرقت بنادق اهلها القديمة سفينة القيادة لحملة فتح الصعيد التي ارسلها نابليون من القاهرة ، فلم تستطع ابدا ان تزعم انها فتحته . ولكن ولادته رغم ذلك كانت هي ثالث الاحداث في ذلك الشهر التي رسمت البداية لتاريخ مصر الحديث . بل ربما كانت ولادته ، هي الحدث الاكثر اهمية ، اذا نظرنا الى التاريخ بحثا عن اعماقه الحقيقية واساسه . فان العمل الذي انجزه الصبي الصعيدي فيما بعد هو الذي اعطى المعنى الايجابي للحدثين الاولين ، فقد كان على شعب مصر ، الذي دفع الثمن كله ان يكون هو الذي يصنع بجهده ذلك المعنى ، وان يكون هو الذي يجسده .

***

يصعب علينا الان بالفعل ان نتخيل نوع العالم الذي جاءه رفاعة الصغير يوم مولده . كانت قد مرت ثمانية قرون تقريبا منذ بدأت سيطرة الاجناس الاسيوية ، المتخلفة حضاريا وثقافيا ، على مصر والوطن العربي : من الاكراد والشركس والتركمان والمغول والاتراك . جاءوا قادة عسكريين ، ومماليك وغزاة فاتحين . وكانوا محاربين عظماء ، ولكنهم كانوا ايضا اصحاب تخلف حضاري وثقافي عريق . وبحكم سيطرتهم السياسية القائمة على القهر ، وبحكم غربتهم عن لغة الثقافة العربية ووصولهم الى السيطرة دون سند اولي من « مؤسسات » هذه الثقافة — الا الاسانيد الشكلية — وبحكم قسوتهم الاصلية وقسوة النظام الاجتماعي السائد ، فقد ترابطت هذه العوامل لكي تفرض على مصر ، وعلى الوطن العربي كله ستارا من التخلف والفساد العقلي والاخلاقي اصبح فيما بعد مضرب الامثال . والقصص التي تروى عن ذلك ليست لها نهاية ، كما ان ذلك التخلف قد احتوى في مضمونه نسيانا كاملا للتراث الحضاري والثقافي العظيم الذي ازدهر حتى قبل وصول « الاسيويين » بعشرات قليلة من السنين . ان علماء الازهر الذين ظنوا ان العلماء الفرنسيين يستخدمون نوعا من السحر في معامل الكيمياء لكي يخدعوهم ، واقر مؤرخهم الكبير « عبدالرحمن الجبرتي » بانهم يأتون اعمالا : « لا تسعها عقول امثالنا » هؤلاء العلماء كانوا جديرين بان يظنوا نفس الظنون بأسلافهم العظماء من الفلاسفة والعلماء العرب ، من امثال الفارابي وابن سينا او الكندي او ابن الهيثم او البيروني .. هذا اذا اتيح لهم ان يسمعوا عن تلك الاسماء .

ونحن الان قد نستخدم لغة السجع والتورية اللفظية لكي نصنع بعض الفكاهات .. ولكن هذه اللغة كانت هي اللغة الوحيدة التي يمكن ان يعبر بها من شاء الكتابة من هؤلاء العلماء . ولم تكن هذه اللغة الفقيرة قد استخدمت ابدا ، منذ نحو الف سنة للتعبير عن شيء من العلوم الطبيعية ، ولا الفلسفة العقلية ، ولا العلوم البحتة — كالرياضة — ولا العلوم النظرية — كالفلك والهندسة . ونظرة واحدة الى المجلدات الاولى من اي كتاب في التاريخ وضع في هذه السنوات الالف ، تكشف عن التصور الخرافي الذي نقله المؤرخون من كتابات اليهود وغيرهم ، ومن بقايا ما عرفوه من حكايات شعبية عن تاريخ شعبهم والشعوب المجاورة . وبعد مئة سنة فقط من موت المؤرخ وعالم الاجتماع الكبير عبدالرحمن بن خلدون .. وضع — عالم — ازهري كتابا لتعليم امير من المماليك في مادة — وصف العالم — او الجغرافيا ، ولكن هذا الكتاب يصلح لان يكون دائرة معارف لكل الخرافات القديمة عن شكل كوكبنا وما يعيش فيه من احياء ، ولا يكاد وصف مصر نفسها فيه يكون صحيحا .

اما عن ادوات الحياة ، وادوات الموت ، فيكفي ان نتذكر ان الجبرتي قال ان الناس الذين تجمعوا لمشاهدة القتال بين الفرنسيين والمماليك في انبابة : « لما عاينوا القنبر — اي قذائف المدافع — ولم يكونوا عاينوه من قبل ، صاحوا : يا خفي الالطاف نجنا مما نخاف ، وان الجبرتي ايضا ابدى اعجابه بالعربة الصغيرة ذات العجلة الواحدة التي صنعها الفرنسيون لتسهيل نقل الاتربة . وقال انها — معجزة الناس الفرنساوية — وانها — شيء لطيف ..

ولكن هذا العالم كان قد اهتز هزة عنيفة في السنتين السابقتين على مولد رفاعة . وان هؤلاء الناس الذين استنجدوا بخفي الالطاف حينما عاينوا القنبر — سبكوا شبابيك الجوامع والبيوت بعد عام واحد لكي يصنعوا مدافع وقنابل ليمنعوا كليبر من العودة للقاهرة

في ثورتها الثانية ، ونظموا اول مقاومة وطنية مسلحة وسرية ضد السلطة الاستعمارية انتهت بقتل كليبر نفسه بعد ايام ، واستمرت لكي تعزل ولاة السلطان الذين جاؤوا من الاستانة واحدا بعد الاخر وارغمت السلطان بالثورة على تعيين الوالي الذي ارادته قيادة المقاومة من نفس مشايخ الازهر الذين سحرتهم معامل الكيمياء واستصغروا عقولهم امامها قبل عامين اثنين فقط .

كان بعض هؤلاء المشايخ قد اكتشف معنى الحرية ومعنى ان تحكم الامة نفسها بنفسها ، ومعنى ان تكون الامة منظمة تدافع عن نفسها بالسلاح . وقد تكرر هذا الدفاع ايام حملة فريزر في رشيد والاسكندرية . وتحت نفس القيادة التي شجعت محمد علي لكي يقاوم الغزوة الانجليزية ولا يهرب كما فعل المماليك . واكتشف بعض المشايخ الاخرين قيمة العلم والحضارة . وهؤلاء هم الذين ارتبط بهم رفاعة الشاب حينما وصل الى القاهرة لكي يدرس في الازهر وهو في السادسة عشرة من عمره، فقيرا يحفظ القرآن وبعض كتب شروح النحو والبلاغة والفقه .

وفي القاهرة يكتشف شيخه الكبير ، وشيخ الازهر فيما بعد ، حسن العطار الذي كان يجمع في بيته المع تلاميذه لكي يتباحثوا فيما عرفوه من علوم الفرنسيين ، واسباب تفوقهم الظاهر على المماليك ، وولعهم بالمعرفة والنظام والنظافة ،واكتشف الشيخ الكبير موهبة تلميذه الشاب . وبينما كان عقل الشاب يتفتح امام ما يسمعه، كانت الدولة توطد اركانها . فقد اباد محمد علي بقايا المماليك وقضى على اسس النظام الاقتصادي والاداري القديم . واكتشف ان باشوات الاستانة سيعملون على خلعه حتى لا يخلق مركزا قويا ينافسهم من القاهرة ، وقرر ان ـ جيشا قويا ـ هو ما يمكن ان يحميه . وبمجيء عدد من ضباط جيش نابليون المهزوم في ووترلو ،وعدد من الاقتصاديين والسياسيين اتباع سان سايمون ـ الاشتراكي الخيالي الفرنسي ، حصل طموح محمد علي، على الافكار العلمية اللازمة لتجسيد خياله ـ وهو كعسكري لا بد ان يفكر في ان بناء الجيش يمكن ان يكون النواة التي ينبغي ان يشيد فوقها وحولها بناء الدولة كلها . ان جيشا حديثا يحتاج الى ادارة وصناعة وعلوم ومدارس واقتصاد حديث ، ولا يمكن ان تنتجه مؤسسات متخلفة ، وبذلك بدأ تجنيد الشباب للجيش .وارسال افراد قلائل لتلقي العلوم اللازمة لتوسيع هذا الجيش وتغذيته بما يلزمه وتغذية الدولة التي ستنفق عليه وترسله في الحروب المطلوبة منها ، او الحروب التي ستفرض عليها .

ويكتشف رفاعة ، مع الفقر واحتياجه للرزق المنتظم الذي لا يتيحه التدريس في الازهر ، يكتشف اهمية الالتحاق بوظيفة في هذه المؤسسة الجديدة التي ستبنيها الدولة ، والتي ستبني هي الدولة بدورها .

ويصبح رفاعة ،الازهري الذكي ، تلميذ حسن العطار الذي تفتحت افاق خياله وعقله باحاديث استاذه عن حضارة الغرب، يصبح موظفا في الدولة الجديدة ، اماما وواعظا في احدى وحدات الجيش الجديد . ومن هناك تبدأ رحلة الخلق الجديد .

* * *

لقد كان من الممكن ان يعود رفاعة الطهطاوي من باريس الى القاهرة مثلما ذهب ، مجرد امام وواعظ في احدى وحدات الجيش ، وكان يمكن ان يعود ، حتى بعد انضمامه الى البعثة كدارس وليس كمجرد امام وواعظ ، كواحد منها ، وواحد من الذين درسوا معه ومن بعده في عواصم اوروبا، فيتحول الى مجرد اداة تكتيكية متوسطة الاعداد ، تؤدي خدمة معينة لجيش محمد علي ودولته ثم تنتهي مثلما انتهت دولة محمد علي وانتهى جيشه بعد هزيمته امام القوى الاوروبية التي اقزعها تقدمه فاتحدت ضده وضد مصر،او ضد عمله على انعاش السلطنة العثمانية في الحقيقة .

ولكن رفاعة ، يقدم لنا نموذجا مثاليا للدور الذي يمكن ان تلعبه العبقرية الفردية في التاريخ : العبقرية التي تكتشف المغزى الحقيقي لاحداث عصرها وتيار تلك الاحداث ، وتكتشف واجبها في استخلاص كل ما هو ممكن من ذلك التيار لصالح قوى التقدم الحقيقية والاصيلة .

لقد انتهت « اسطورة » محمد علي بهزيمته واجباره على قبول شروط اوروبا وباشوات السلطنة المتواطئين ضده ، وجاء بعده وبعد موت ابنه ابراهيم باشا ، حفيده الخديو عباس ، صورة من الولاة القدماء تخلفا وجهلا وقسوة وغباء وحرصا على التخلف والجهل والغباوة ، وتغلق مدرسة الالسن وكل ما انشأه رفاعة وتلامذته من المدارس ومؤسسات الدولة المتمدينة التي تحايلوا لخلقها مستفيدين من طموح محمد علي، ومن الضرورات التي خلقها وفرضها على الدولة وعلى المجتمع كله ذلك الطموح .. وينفى رفاعة الى السودان .

فكيف كان يمكن ان تبدو اسطورة محمد علي ، الا لونا من الذكريات يتبادلها المشايخ والموظفون والضباط القدماء المسرحون من الجيش المتضائل .. لولا الكتب الالف التي كان رفاعة وتلامذته قد نقلوها الى العربية في كل الفنون والعلوم وطبعوها ، فوزعت بين مئات البيوت والوف الايدي ..

ولم يعد في وسع الخديو المتخلف الغبي لا ان « يغلقها » كما اغلق مدارس رفاعة ، ولا ان ينفيها مثلما نفى المعلم الاول الذي اختارها بنفسه واشرف على ترجمتها ، وراجع الكثير منها ، وتلقى بيديه اول نسخة منها جميعا طوال سبعة عشر عاما ؟ ويتكرر نفس الموقف اثناء سنوات تحرر الوالي سعيد الذي جاء بعد عباس ،

ثم اثناء حكم اسماعيل ، حتى بلغت تلك الكتب اكثر من العشرين .

فبينما كان محمد علي يحلم بالامبراطورية ، ويكرسي الصدر الاعظم في الاستانة ، ويحصي النقود التي جمعها جباته بالسياط من فلاحي مصر وتجارها ، وبينما كان يظن ان دولته .. ومن اكبر موظفيها رفاعة نفسه ـ لا عمل لها الا تصنيع الاسلحة والجنود وجمع النقود .. كان رفاعة يضع الاساس لاستمرار تطور مصر نفسها وبنيانها الحضاري الحديث كله .. بصرف النظر عن مصير هذه المغامرة التي ما كان العصر الاستعماري يقبلها في المنطقة التي تمثل محور الارتكاز لاستراتيجية الدول العظمى طوال القرن التاسع عشر ، لم يكن محور حلم الباشا هو مصر ، وانما السلطنة العثمانية التي كان التاريخ قد حكم عليها بالزوال ، ولم يكن يبقيها الا منطق توازن القوى في وسط العصر الاستعماري ، ولم يكن هم الباشا عظمة الاسلام وانما مجده الشخصي .. اما الشيخ المعلم فكان محور حلمه هو مصر في المستقبل لانه تفرغ لتعليمها ولغرس البذور التي لا تموت ولا تتحكم فيها اية معاهدات دولية ولا اية نهايات لمصائر افراد بعينهم ، وكان همه هو المصريون وحريتهم ورخاؤهم واستنارتهم وحكمهم لانفسهم وحصولهم على حياة جديرة بالبشر ، يصنعونها بانفسهم .

كان يمكن في باريس ان يتعلم اللغة وان يتقن الترجمة ، وان يكتفي بترجمة نصوص الكتب المدرسية التي ستلقى في الفنون العسكرية على ضباط وجنود الجيش طبقا لخطة محمد علي وتصور رجاله عن وظيفة هذه البعثة التعليمية والبعثات المشابهة .. ولكن ها هو رفاعة الشاب يحرث ارض المعرفة كلها لكي يعد نفسه للمهمة التي قرر ان يتولاها ، والتي رأى ان التاريخ نفسه يؤذن بامكانية تحقيقها : مهمة بعث الحياة في عقل هذه الامة ووجودها اعتمادا على اصولها بالذات ، وعلى اساس بث الروح الحية في الاداة الاساسية لصنع الحضارة واستيعابها وهي : اللغة ، حتى تمتلك الامة في لغتها اسرار تلك الحضارة الحديثة واوعيتها وما تحتويه .

وفي يقيني ان المعلم الاول ، كان واعيا منذ البداية بما يفعله ، وبما يريد انجازه ، ربما نبهه احد الى ضرورة ان يهتم بكل فروع المعرفة حتى يصبح « مترجما » يترجم كل شيء الى لغته العربية . ولكن من المؤكد انه هو الذي اختار فروع المعرفة التي يركز اهتمامه عليها . والكتب التي سيشرع في ترجمتها للاستفادة المباشرة بمادتها ، ولتطويع اللغة العربية ـ بمفرداتها وتراكيبها ـ من اجل ان تصبح قادرة على استيعاب هذه المادة وما يترتب عليها حتما من افكار . لقد طلب اليه استاذه الشيخ حسن العطار قبل السفر ان يسجل ملاحظاته ، ولكن رفاعة هو الذي كتب صورة الحضارة والثقافة الغربيتين ، ولخصهما ، ونقدهما ، واكتشف موقفهما الحقيقي من « الشرق » ومن وطنه ، وعرف انهما قد يكونان اداة تصلح لتطوير بلاده ، ولكن من الخطر الاستسلام لهما ، ومن العبث السعي الى استبدال جوهر وطنه بهما .

وتوحي مختارات المعلم الاول للترجمة ، وموضوعاته للتاليف ، انه اكتشف الحاجات الحقيقية لحياة امته ، ولعقلها ، اكتشف انها بحاجة الى المعارف العملية وتطبيقاتها ، فاهتم بالرياضة والهندسة والمعادن والادارة والاقتصاد ، ولكنه اكتشف ايضا حاجتها الى تغيير تصورها عن الكون وعن الكوكب الذي تعيش فيه ، وفي هذا سر اهتمامه الشخصي الخاص بالجغرافيا وبالفلك . ولا شك انه توقف كثيرا عند المغزى الذي تدل عليه الحقيقة التي نعرفها عن التطابق بين بداية علوم الفلك والجغرافيا الحديثة وبين بداية عصر النهضة والتحرر الفكري في الغرب . فبهذين العلمين حصل الانسان الغربي على « الاحساس » الصحيح بوضع البشر في الكون .. وبشكل هذه الارض التي يقفون فوقها واستبدلوا التصور الخرافي القديم بشعور « ملحمي » يقيني جديد يدفعهم دفعا الى مرحلة جديدة من الصراع ضد الطبيعة ، يشعرون فيه بانهم يواجهون اشياء يمكنهم بالفعل معرفتها والوصول اليها ، واخضاعها لاحتياجات الانسان ، وليسوا امام « مشاعل معلقة في السماء يسكنها الملائكة كما جاء في « نهاية الارب » وفي تعاليم الكنيسة الكاثوليكية قديما ولا يقفون فوق « اسطوانة مستديرة يمسكها تدبير الهي فوق قرن ثور ، ويقال فوق ظهر سلحفاة يقف أو تقف فوق ظهر حوت يسبح في بحر الظلمات » . ولا شك ان المعرفة « العلمية » بحقيقة ذلك الوضع والايمان بها يخلقان شعورا مختلفا وحالة عقلية متميزة كل التميز عن الشعور الذي تولده الخرافات الاخيرة .

وهذا الشعور وتلك الحالة العقلية هما ما سعى اليهما المعلم الاول ، لانهما يعنيان « الحرية » والقدرة على الفعل .. النتيجة المحتمة للعلم ، بدلا من حالة القهر والعجز التي تخلقها التصورات الخرافية .

والى جانب الجغرافيا والفلك ، اهتم المعلم الاول بالتاريخ وبما يمكن ان نسميه « فلسفة التاريخ » او « علم الاجتماع » ، او بنوع من « الانثروبولوجيا » ـ علم تاريخ العقائد » . فبعد تصحيح احساس الناس بوضعهم في الكون وفي كوكبهم ، اكتشف المعلم الاول حاجة امته الى تصحيح تصورها عن تاريخ المجتمع الانساني نفسه او تاريخ البشر انفسهم على هذا الكوكب ، ثم الى تصحيح تصورها عن تاريخها ، هي بالذات . ولذلك لم يكتف بترجمة وتأليف الكتب التي تقدم « حقائق » ذلك التاريخ وانما اضاف اليها الكتب التي تكشف معنى تلك الحقائق بوصفها ظواهر موضوعية .. تحكمها قوانين لا سيطرة للبشر عليها الا اذا حققوا الوعي بها ، كسائر قوانين العلم التي تتحكم في سائر ظواهر الطبيعة ، وهي الكتب التي تمنح امته التصور الصحيح عن حياة وعقائد

وتصورات الامم الاخرى ، حتى يسود امتـــه احساس موضوعي ازاء هؤلاء الاخرين ، ينتج عن المعرفة بحقيقتهم ، بدلا من التصورات الخرافية التي نجدها ايضا في كتب مؤرخي الالف سنـة الماضية وعلمائها .

ونظرة الى كتاب الطهطاوي عن تاريخ مصر وتاريخ العرب : « انوار توفيق الجليل في تاريخ مصر وتوثيق بنى اسماعيل » تكشف ايضـا عـن رغبته في اقامة تصـور المصريين عن تاريخهم على نحـو صحيح : انهم اصحـاب تلك الحضارة العريقـة القديمة التي تطورت حتى التقت بنهـر التاريخ العربي فاستوعب احدهمـا الاخر وصارا نهرا واحدا لـه « رواقد » بعيدة متعددة الاصول ، وان عليهم ان يعيشوا الوعي بهـذا البعد التاريخي لوجودهـم « الاجتماعي » حتى يعرفوا انفسهم والمعنى الحقيقـي لحضارتهم المعاصرة ، وحتى يعرفوا انهم هم الذين صنعوا تلـك الحضارة ، وانهم صنعوهـا من خلال صراع عظيم ضد عناصر وعوامل القهر الكثيرة .

واخيرا نكتشف اهتمام المعلم الاول باللغة ، سواءعن طريق اثرائهـا مباشرة بالترجمة ، واحيائها لكي تتمكن من استيعاب تلـك العلوم والمعارف التي لم تستخدمهـا ابدا طوال الف سنة ،والتي تطورت وتشعبت بشكـل هائل طوال تلـك القرون العشرة ، او عن طريق تحديدالمصطلحات العلميـة الجديدة وتوحيدها عن طريق وضع القـواميس الخاصة في نهايـة كل كتاب مترجم ، تحديدا للمعانـي وتوحيدا لها في اذهـان من يستخدمون الاصطلاحات فـي العمل او في التعليم . وكان المعلم الاول عمليا الى اقصى حد في هذا المجال ، فكـان يلجأ الىاللهجة العامية لكـي يأخذ منهـا المصطلح الذي يريـده اذا لم تسعفهالفصحى، فاذا لم يجد في العاميـة بغيته كتب المصطلح الاوروبـي بالحروف العربية كما هو . وكذلك في اسلـوب التعبير الذي كان قائمـا في عصره على ضرورة استخـــدام المحسنات البديعيـة من سجع وجناس وتورية ..الخ..

لقد اكتشف خطورة ذلك القيد الثقيل على العقليـة العربية منذ تعلم الفرنسية في الشهـر الاول من اقامتـه في باريس ، وبدأ منذ ذلك الحين ، في الصفحات الاولـى من كتابه الاول « تخليص الابريز » محاولةالتخلص من ذلك القيد ، سعيـا الى دقـة التعبيـر وتطابقه مع حقائـق الاشياء ومع جوهر المعاني التي يريد التعبير عنها .

ان هذا الصراع الكبير من اجل تحرير اللغـة ،ومن اجل تحريرها من « التقديس » من اجل اثرائها بالمفردات والمصطلحات واساليب التعبير ، انما تكشف عن ادراكـه لان اللغـة وعاء للثقافـة والحضارة جميعا ، وانـه دون اعداد هذا الوعاء ، لكي يكـون مستعدا للاتساع والتشكل باشكال ما يحتويه ، فانه لا امل في تطور حقيقي لعقلامته، وبالتالي لحياتهـا .

لقد انتهت مغامرات الباشوات الثلاثة ، محمد علي، ثم سعيد ، ثم اسماعيل ، نهايات تتناقض جوانبها بيـن النفع والضرر ، كمـا تتناقض مع مقدماتها بين الخيـر والشر ، اما مصر فقد فازت بما صنعه ابناؤها ، وعلـى رأسهم معلمهـا الاول الكبير وما حققوه من معرفة وحرية وبنيان مادي ومعنوي ، حضاري وثقافي تقوم عليه حياتهم الجديـدة .

وفي ظني ان هذا البنيان ، وفي جانبه المعنـوي الثقافي بالذات ، قد كـان في حساب القوى التي كانت تخطط للقضاء على النهضة المصرية لتحويل مصر الـى مستعمرة ونقطة حراسة لطرق المواصلات الامبراطوريـة في نفس العصر الاستعماري . ولا شك ان الاجيال التالية للمعلم الاول ، قد جاهدت لكي تكمل طريقه ، وكان عليها ايضـا ان تجاهد ضد ذلك المخطط الذي ارادنا ان نتخبط في طريق المعرفـة والحرية . ولعلنـا نستطيع في اعادة اكتشاف معنى العمل الذي حققه « جدنا الجليـل » ان نعـود الى طريقـه المستقيم .

***

المعلم الاول :

بطاقـة حيـاة

١٥ اكتوبر ١٨٠١ ــ يولد في طهطا ، ويتولى ابـوه واخواله تعليمه الاول بالعلوم التقليدية وعلـى الاسلـوب الازهـري .

ــ ١٨١٧ ــ يأتي الى القاهرة ويلتحق بالازهر .

ــ ١٨٢٢ ــ التدريس في الازهر ، وتدعيم علاقتـه بالشيخ حسن العطار ، اكبر من ادرك اهمية الجـانب الحضاري الذي مثلته الحملة الفرنسية والتحدي الكامـن فـي هذا الجانب .

ــ ١٨٢٤ ــ يلتحق بالجيش الجديد ــ اكبرمؤسسات محمد علي ــ كأمـام وواعظ .

ــ ١٨٢٦ ــ باريس ، والذهاب اليها اماما لبعثة من ٣٤ طالبا ، نصفهم من اصل مصري ، لدراسة العلـوم الفيزيقية والانسانية ، والاجتماعية المختلفة . وطلبـه الانضمام الى البعثة كدارس لا مجرد امام وواعظ . وقرار ضمـه الى البعثة لدراسة الترجمة .

ــ ١٩ اكتوبر ١٨٣٠ ــ الامتحان النهائي في ختـام الدراسة ، يقدم للجنة الامتحـان نصوص ١٢ كتابا او فصولا من كتب قام بترجمتهـا خلال سنوات الدراسـة الخمس ، تشمل جوانب من علوم التاريـخ والتعديـن والجغرافيا وعلم الاجتماع والهندسة المدنية وفن القيـادة العسكريـة والقانـون العام وفلسفة القانون والميثولوجيـا اليونانية والصحة العامة وتقويم البلدان .. هذا بالاضافة الى المخطوطة الكاملـة لكتاب « تخليص الابريز .. » الذي يقدم فيه اكتشافه للحضارة الغربية : تاريخها واصولهـا ومؤسساتها السياسيةوالثقافية والاقتصادية والتشريعية والقضائية ، وادبهـا واصول السلوك والعادات فيهـا ،

وحقوق الافراد .. ووجهة نظره النقدية والموضوعية في كل ذلك .

ـ ١٨٣١ ـ العودة الى الوطن ، وبدء العمل مترجما في مدرسة الطب تحت رئاسة مترجم لبناني ، ثم الاشراف على المدرسة التجهيزية « الثانوية » ويعمل على تطوير مناهج الدراسة في مواد : الحساب والهندسة ، ووصف الكون « الفلك » والتاريخ الطبيعي ، والتاريخ الاجتماعي ـ القديم ـ والحديث ، والمنطق .

ـ ١٨٣٣ ـ الانتقال الى « مدرسة الطوبجية » للمدفعية ، والشروع فورا في اعداد وتنفيذ مشروع اقامة « الجامعة » الاولى في مصر وانشاء « مدرسة التاريخ والجغرافيا » وتدريس علم الجغرافيا بنفسه ، ثم طلب اعفائه من العمل في مدرسة الطوبجية ، والتخطيط لانشاء « مدرسة الالسن » لتكون النواة الحقيقية للجامعة . وترجمة المجلد الاول من « جغرافية ملطبرون » .

ـ ١٨٣٥ ـ افتتاح مدرسة « الترجمة » التي اصبحت مدرسة الالسن « فيما بعد ، وقبول الدفعة الاولى ٢٧ طالبا ، تخرج منهم عشرون والشيخ رفاعة يدرس التاريخ والجغرافيا والمنطق وتاريخ القانون والفلسفة والادب ، والاشراف الفني والاداري ، وتوجيه الطلبة في الدراسة ، واستثمارهم فورا في الترجمة ، والتركيز على العلوم الانسانية ، وعلى التاريخ والقانون والفلسفة بالذات ويترجم اول كتاب في تاريخ العقائد وعادات الشعوب ، مع بدء جمع الاثار المصرية واستصدار امر صيانتها ومنعها من التهريب والضياع .

ـ ١٨٣٧ ـ يصدر ترجمته لكتاب « قدماء الفلاسفة » .

ـ ١٨٣٨ ـ ترجمة كتاب « تاريخ قدماء المصريين » وترجمة كتاب « المنطق » .

ـ ١٨٤٠ ـ انشاء « مدرسة المحاسبة » لدراسة العلوم الاقتصادية والادارية ، انشاء « مدرسة الادارة الافرنجية » ، للعلوم السياسية والادارية العليا .

ـ ١٨٤١ ـ « عودة قليلة الى الوراء » انشاء اقسام متخصصة للترجمة : في الرياضيات ، والعلوم الطبيعية ، العلوم الاجتماعية ، الترجمات التركية وقرار التدريس باللغة العربية لكل المواد .

ـ ١٨٤٢ ـ الاشراف على صحيفة الوقائع المصرية ، وبدء اصدارها على اساس ان العربية لغتها الاساسية بدلا من التركية .

ـ ١٨٤٣ ـ اضافة وظائف جديدة ، تفتيش عموم مكاتب الاقاليم ، والاشراف على « الكتبخانة الافرنجية » وعلى عدد من المدارس العسكرية والمدارس الاولية في الاقاليم .

ـ ١٠ ـ نوفمبر ١٨٤٨ ـ وفاة ابراهيم باشا ابن محمد علي وخليفته في حياته ، ثم وفاة محمد علي نفسه بعد اقل من سنة ، وانفراد الخديو عباس بالحكم .

ـ نوفمبر ١٨٤٩ ـ عباس يغلق مدرسة الالسن ، ثم المدرسة التجهيزية بمشورة انجليزية ، ويقصر توزيع « الوقائع » على اصحاب الوظائف الكبرى .

ـ ١٨٥٠ ـ عباس ينفي رفاعة الطهطاوي الى السودان ـ ترجمة مسرحية ـ « تليماك » ـ في السودان ، الكفاح من اجل العودة للوطن .

ـ ١٨٥٤ ـ موت عباس ، وولاية سعيد ، وعودة رفاعة من السودان ، وتعيينه مترجما في مجلس محافظة القاهرة وعضوا بالمجلس ، اول مشروعاته « انشاء مكاتب الملة » اي مكاتب الامة ، النشر التعليم بين عامة افراد الشعب ، اي محو الامية ، امية القراءة والكتابة ، وامية الفكر وسعيد يتجاهل المشروع .

ـ ١٨٥٥ ـ تعيينه وكيلا للمدرسة الحربية ، ثم انشاؤه مدرسة اركان الحرب ، ثم يحولها الى مدرسة للتثقيف والتعليم الانساني العام ، بدراسة اللغات الشرقية والاوروبية والتاريخ والجغرافيا .. الخ الى جانب العلوم التطبيقية الاساسية .

ـ ١٨٥٥ ـ منظوماته الشعرية الوطنية التي دعا فيها الى محو اثار نكسة عباس وبدء النهوض من جديد .

ـ ١٨٥٦ ـ اقناع سعيد بتبني مشروع احياء التراث العربي والاسلامي والبدء بطبع تفسير الرازي للقرآن ، وخزانة الادب ، ومقامات الحريري .

ـ ١٨٦١ ـ نكسة سعيد ، وفصل رفاعة من العمل حتى وفاة سعيد بعد اغلاق مدرسة اركان الحرب .

ـ ١٨٦٣ ـ وفاة سعيد ولاية اسماعيل ، وعودة رفاعة الى النشاط . الاشراف على « المكاتب الاهلية » ورئاسة مجلسها ، والاشراف على تدريس اللغة العربية ، ورئاسة قلم الترجمة الجديد وترجمة جميع القوانين الفرنسية .

ـ ١٨٦٨ ـ اصدار كتابه « انوار توفيق الجليل في اخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل » .. اول كتاب مصري علمي عن تاريخ مصر القديمة ، وتاريخ العرب قبل الاسلام .

ـ ١٨٦٩ ـ اصدار كتابه « مناهج الالباب المصرية في مناهج الاداب العصرية لبحث موضوع « التمدن » واصوله واطواره ، مع اصدار كتابه في تبسيط علم النحو وقواعد اللغة العربية .

ـ ١٨٧٠ ـ انشاء مجلة « روضة المدارس » اول مجلة ثقافية وفكرية وادبية في مصر ، واصدار ملاحقها في شكل كتب كاملة ، في الفلسفة والجغرافيا والصحة العامة وعلم النبات والفلك ، والفقه الاسلامي ، والاخلاق ، والتاريخ العربي والاسلامي .

ـ ١٨٧٣ ـ اصدار كتابه « نهاية الايجاز في تاريخ ساكن الحجاز » ـ عن تاريخ وسيرة الرسول . صدر بعد وفاته في نفس العام : ٢٧ مايو ١٨٧٣ .

القاهرة